وأين صالحية مصر؟

للأستاذ أحمد رمزى

كتب الأستاذ على الطنطاوى مقالا فى عدد الرسالة الماضى تحت عنوان من « ذكريات بغداد » ، أشار فيه إلى صالحيتين فقال « بروحى صالحية دمشق وصالحية بغداد » ، ونسى صالحية مصر ، فسامحه الله — لذا جئت أذكره بها .

أما موقعها فعلى نهاية الخط الحديدى المعروف بها ، وكانت تربطها بالقنطرة سكة حديدية ، أقيمت أيام الحرب الماضية ، ثم نزعت قضبانها الحكومة المصرية لسبب لا يعلمه إلا الله ، وبقيت المحطات بين الصالحية والقنطرة أنقاضاً ، تذكر الناس بحملة فلسطين وأنفار السلطة ، وكانت القطارات تمر على الخط بعد منتصف الليل ، ولا يزال صدى صوت المجنّدين للسلطة وأغانيهم البريئة يرن فى أذنى ، حينما كنا صغاراً فيقطع نومنا الهادىء صفير القطارات العسكرية تحمل العتاد والرجال للجبهة فى شرق القنال .

وصالحية مصر ، فيها جمال الواحة وجمال الريف ، ولقد دخلتها وقت طلوع الفجر ، فأخذتنى روعة الصحراء ، ورأيت الرمال ممتدة الى نهاية النظر ، تلك الرمال التى قال عنها العرب : الجفار والغرابى والهبير ، وهى الواقعة وراء جبال طى إلى أرض مصر ، أما نخيلها فيبدو كغابة من غابات اقليم الشرقية ، التى ينفرد بها اقليم الحوف كما كان يطلق عليه قديماً ، إذا أتيت إليها من الغرب مشرّقاً ، شممت لأرض الحوف نسيما أرق من نسيم الدلتا ، لأنه يحمل أريج الصحراء ، وإذا نظرت إلى نخيل الصالحية عند الشروق أوفى ليالى القمر ، شهدت منظراً لا تشبع العين منه ، وتحس فى صالحية مصر بالنشاط الذى يملأ النفس والجسد ، ويجعلك تفكر فى آفاق بعيدة فيما وراء النظر ، فيما وراء هذه الرمال ، حيث مشرق الشمس ومطلع سراج الدنيا . والصالحية من بناء سلطان عظيم ، هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، طيب الله ثراه ، أنشأها سنة ٦٤٤ هجرية ، على طريق القوافل بين مصر ودمشق ، لتكون منزلة لعساكر الاسلام ، إذا خرجوا من مصر للجهاد فى الأراضى المقدسة ، أو عادوا من الحرب إلى مصر ، وبنى بها قصراً وجامعاً وسوقا ، وكان ينزل بها ويقيم فيها ، ودخلها من بعده الكثير من ملوك مصر وأمرائها فى ذهابهم للفتوح وعودتهم منها ، ولذا تألق اسم الصالحية فى تاريخ مصر العربى ، وعرف صعيدها الكثير من العز والمجد ، وورد ذكرها فى مختلف التواريخ والسير .

وأهلها من صميم العرب ، لهم فى التاريخ المواقف الخالدة ، وكانت الرياسة فيهم ولا تزال إلى اليوم فى آل الحوت ، وهم فرع من بنى سليم [1] ، جاءوا مع السيد عزّاز صاحب الجزيرة البيضاء ، وكانت هذه النواحى وماحولها من قديم الزمن وقبل بناء الصالحية منازل لجماعات من القيسية واليمنية ، وكان كبيرهم ربيعة بن قيس ، ورد ذكره إبان حوادث المأمون وأخيه الأمين ، فهو الذى تمسك ببيعة الأمين الخليفة العباسى ، وكانت مصر قد خطبت باسم المأمون وله عامل بالفسطاط ، فبعث برجل اسمه الجروى ، الذى سار فى جماعة من لخم وجذام إلى بلدة فاقوس ، فنزل مع قومه بها وكانت له مع قبائل البلاد وقائع وحروب .

وكانت هذه المناطق موطناً للعرب ، من بنى عمرو وبنى حرام وبنى عقبة وبنى زهير وبنى واصل والبقرية ، وهم الذين تفرقوا فى النواحى وعمروا القرى والبلاد ببطونهم وأفخاذهم .

ولما تم بناؤها أصبحت الصالحية من أهم منازل الدرب السلطانى الذى كان يربط قلعة مصر القاهرة بقلعة دمشق ، طوال الأزمان الماضية ، وقد وصفه المقريزى فقال انه كان عامراً إلى سنة ٨٠٦ هجرية ، وكان لا يخلو من المسافرين لأنه ممر البريد السلطانى بين العاصمتين . ولما جاء الفرنسيون رسموه على خرائطهم ووضعوا عليها أماكن الآبار ، وساروا فيه بجنودهم الى الشام وفى عودتهم إلى مصر .

ولقد قطعت الطريق بين مصر وفلسطين فى ذهابى إلى سوريا وعودتى منها مراراً عديدة ، وكنت أقطع القنال أحياناً من السويس وأحياناً من الاسماعيلية مخترقا سينا ، وكنت كلما لاح لى نخل القرين وأنا على مفترق الطريق قبل بلدة التل الكبير ، أذكر الدرب السلطانى القديم ، الذى كان يتجه من العباسة إلى بلدة القرين

(١) خطط على مبارك باشا .

ثم إلى الصالحية ، وأحدّث نفسي بالآمال فأقول « متى يعبّد للسيارات فتسير عليه » ، ومتى تهتم السلطات المختصة بالنواحي التاريخية ؟ أليس في كل مرحلة منه ذكريات ، وفي كل محطة بريد أثر أو بقايا أثر ، يحدثنا عن ماضينا المجيد الذي يحاول البعض أن تنساه مصر ، وما كان لمصر أن تنساه .

وهذا الدرب السلطاني يعرفه ابن بطوطة الرحالة المشهور فقد سار فيه وتحدث عن منازله ، ووصفها بقوله « ولكل منزل منها فندق ينزل فيه المسافرون بدوابهم ، وبخارجه ساقية للسبيل وحانوت للشراء » وذكر الصالحية عند نزوله بها .

أما الشيخ عبد الغني النابلسي فكان أوسع وصفاً منه حينما تناول الصالحية بكلامه ، فقال « وفي داخل القرية جامع السلطان قايتباي وعمارته متينة ، له إيوان عريض فيه المنبر والمحراب وله منارة عظيمة . . . وأهل الصالحية حارتان متميزتان في الألفاظ والمعاني فنهم القيسي الأحمر واليمني الأبيض »

ولو شئت دليلا على قيام القيسية واليمنية بقرى مصر ، فاذهب اليوم إلى بلدة السماعنة من قرى فاقوس ، تجد فتياتها لا يتخذن غير اللون الأبيض لخمارهن ، واذا جئت لجزيرة سعود وجدت نساءها يلبسن الخزام الأحمر ، ولا تعرف واحدة منهن شيئاً عن النزاع القديم الطويل الأمد بين اللونين ، والذي يمكن تتبعه من خراسان الى ماوراء النهر في أواسط آسيا والعودة به الى أيام الجاهلية ، والتحدث عنه في الجزيرة الخضراء أي بأرض الأندلس .

ونعود إلى الصالحية فنقول إن موقعها على طرف الأراضي الزراعية وعلى حافة الصحراء ، قد جعل منها مركزاً هاماً لتجمع وحشد الجيوش الإسلامية في القرون الوسطى ، حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية ، فورد اسمها كثيراً في حملات ملوك مصر ضد هولاكو وأبنائه وأحفاده ، وكانت لها شهرة تاريخية بتوالي هذه الحروب ، وتتابع الأحداث التاريخية والمواقف الرائعة التي حدثت بها .

ففي سنة ٦٥٦ هجرية دخل هولاكو بغداد مقتحما الجزء الغربي من بلاد المسلمين فقضى على خلافتهم ، وكان جدّه قد سبقه عام ٦١٨ فدمّر الأجزاء الشرقية من أرض الإسلام في بخارى وسمرقند والري ، فأراد أن يتم عمله بتدمير مصر والشام ، ولذا زحف على حلب واستولى عليها ، وبعث برسالة إلى سلطان مصر الملك المظفر ، يهدّد ويتوعد ، وسار إلى دمشق ففتحها ، وكان المظفر من أبطال المسلمين ، فلم يرهبه التهديد ولا الوعيد ، وكانت جيوش هولاكو لا تقهر ولم يسبق لقوة في العالم أن هزمتها أو صمدت أمامها ، فاكتسحت بقية الشام ووصلت طلائعها إلى غزة فقام المظفر يدعو إلى الجهاد ، واتخذ الصالحية مركزا تجتمع فيه الجيوش المصرية ، وكان الناس في قلق وخوف ووجل ، حتى هاجر الكثيرون إلى بلاد اليمن وبرقة والنوبة ، ولما تكامل حشد الجنود في معسكر الصالحية ؛ طلب السلطان الأمراء وتحادث معهم بشأن الرحيل لقتال هولاكو وجنوده ، وكان الرأي الغالب أن جيش التتار لا يقاوم ولا يدفع ، فلم ينطق أحدهم بكلمة واحدة بل امتنعوا عن الكلام فاحتد السلطان وقال لهم « يا أمراء ، لكم زمن تأكلون أموال بيت المال وأنتم للجهاد كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع لبيته ، فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين » ولما جاء الليل ركب المظفر وقال « أنا ألقى التتار بنفسي » .

فقويت العزائم وسار الأمراء معه وتحرك الجيش إلى الشام ، والتقى الجمعان في يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هجرية بأرض فلسطين ، في بلدة عين جالوت وهي المركة التي صرخ فيها السلطان ثلاثاً « وا إسلاماه » فمن الله بالنصر المبين عليه ، فخلصت الشام ومجت مصر .

كان هذا الجمع في النصف الأخير من شعبان سنة ٦٥٨ بالصالحية ، وكنت كلما قرأت عنه في المراجع ؛ أحدّث نفسي ؛ متى أرى نصباً تذكارياً على ربوة عالية ، في ميدان متسع ، يذكر الناس ويوحي إلى الأجيال القادمة ، بهذه الوقفة الرائعة به وهذه كلمة واحدة قد غيرت تاريخ الشرق ولو صدر مثلها من ملك من ملوك أمة من بعض الأمم لنقشوها على الأحجار وللقنوها للاحداث والنشء عندهم ، وليس هناك أحق من الصالحية في نظري بمثل هذا الأثر ، الذي يعلم الناس ما يجهلون من آيات تاريخهم ، لأن على أرضها قيلت هذه الكلمة الفاصلة .

ويطول بنا الكلام إذا تحدثنا عن كل ملك نزل بها وأقام فيها ، ولكني أكتفي بمناسبة سارة . ففي يوم الإثنين ٢٠ المحرم

سنة ٧٠١ عاد الناصر محمد بن قلاوون من الصيد بالبرّية إلى معسكره بالصالحية ، وكانت هناك بعثة من قازان ملك التتار من سلالة هولاكو ، تخلع السلطان على الأمراء واستعرض الجيوش ، فدهش السفراء من زى عساكر مصر واستعدادهم ، وقال المقريزى « إن الرسل أدخلوا إلى الدهليز السلطانى بالصالحية بين يدى السلطان، وقد أوقدت الشموع والفوانيس والمشاعل وغيرها ،حتى أن البرّية أصبحت حمراء تلتهب نوراً ونارا ، تخلع عليهم وأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم» وانصرفوا بكتاب من الملك الناصر .

ومثل هذا كثير لو تناولناه بالجمع فى تاريخ الصالحية لأخرجنا كتاباً عنها ، ولكنها نظرات عابرة فى حياة بلدة أعزها ولها مكانة فى نفسى ، أكتبها لعلى بأن البلدان والرسوم والاطلال مثلها كمثل الرجال تتكلم أحياناً ، وتوحى عن ماضيها ولا سيما إذا حفل هذا الماضى بعظائم الأمور .

وتزلها آخر ملوك مصر المستقلة ، السلطان الغورى فى يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هجرية ، ولما أراد الرحيل أذن لخليفة الإسلام وللقضاة الأربعة أن يتقدموه إلى غزة . وكانت رحلة بعيدة عن السعد ، اختتمت بها مصر حياتها الحرة ، فانتهى عهد وبدأ بها عهد ، وجاء ذكر الصالحية فى تاريخها كنغمة غير مسموعة ، وسط قطعة موسيقية مملوءة بنغمات أقوى ، ولكنها كانت للأسف نغمات الحزن والأسى والدموع ...

هذه صالحية مصر ، أشير إليها كى يذكرها الناس فى وقت نسى الناس فيه كل شىء ، وتقرر الحكومة المصرية فيه إنشاء مركز جديد ، يقتطع من أراضى مركز فاقوس ، فتقلب جميع الأوضاع ، وتدرس مختلف الأسماء ، وتمحى القرى والبلاد ، وتنسى الصالحية ، كما نسيها الأستاذ الطنطاوى سامحه الله — وأجتهد أن أذكر الناس بها ، وأحاول ذلك المرة بعد المرة ، فلا يسمع لى أحد ، ولكن الصالحية هى من بناء ملك عظيم ، وكانت من منازل عظماء الملوك ، ومنها خرجت جيوش الإسلام وعادت إليها منصورة . فكم منا من يعرف ذلك ويذكره ! وكم من أهلها يعرف أن هذا الثرى الذى يمشون عليه ، حمل أعلام العز والمجد والقوة والعمل فى سبيل الله ؟ لن يضيرها أن تتجاهلها وزارة الداخلية ولكن يضيرها أن ينساها الناس ولا سيما أهلوها .

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

المختار

فبراير ١٩٤٦

[إقرأ أمتع ما يكتب وخير ما ينشر]

العلامة اينشتين يبحث القنبلة الذرية : إذا كانت القنبلة الذرّية سلاح الحرب المقبلة فقد يكون فيها القضاء على ثلثى البشر وفى هذا الحديث ترى أينشتين يبين لم يمتنع عن إفشاء سرّها للاتحاد السوفيتى ، ولِمَ يرضى أن يبيحه لحكومة عالمية .

* * *

لماذا تختلف على النفس فترات « النشاط » و « الفتور » ؟ لِمَ تشعر يوماً أنك متوفز الأعصاب سريع الغضب ، أو فاتر النفس مسترخى القوى ؟ ثم لِمَ تشعر فى يوم آخر بنشاط جمّ ومرح فلا يزعجك مزعج ؟ هذا بيان عما كشفه العلم من أدوار فى العواطف تتعاقب على النفس ، وكيف تستطيع أن تنتفع بما كشف .

* * *

القضية الخامسة : اعترف الأفّاق بأنه قتل الأب داهم ، وتعرّف عليه الشهود ، وتتبع رجال الباحث الرصاصة القاتلة إلى مسدسه . ولكن رئيس النيابة الذى ترافع فى القضية ، أقام الدليل على براءة الرجل الذى كان ينبغى له أن يدينه . فلماذا فعل ؟ قصة قضية رائعة أصبحت تروى وتدرس فى مدارس القضاء والبوليس

* * *

باب الكتب : **قضية السلام** : بحث فى الأخطار التى تحفّ بالسلام قائم على مواجهة الحقائق ، ويبين فيه مؤلفه كيف عجزت الرأسمالية والاشتراكية عن توطيد السلام ؟ وكيف يفضى الأمر بهما إلى انتحار الحضارة إذا تسلمتا الزمام مرة أخرى ؟ هذا هو الجزء الأول من كتاب ، عسى أن يصبح أبحث ما نشر فى المختار إطلاقاً على المناقشة واحتدام الآراء . ١٤٤ صفحة ٣ قروش